

عاشوا بين أبناء الجزيرة العربية ورصدوا مظاهر الحياة بكل أنواعها

رحالة أوروبيون يروون ذكرياتهم

هارولد ديكسون أرضعته إحدى نساء السبعة من قبيلة عنزة

المسلمون تماماً عن تناول الطعام والشراب ويحرمون على صوم هذا الشهر كاملاً حتى يكفر الله عن جميع سيئاتهم السابقة حيث يشير النبي محمد -صلى الله عليه وسلم- إلى أن أبواب جهنم تغلق أثناء هذا الشهر وتصفد الشياطين وأولئك الذين يصومون الشهر سوف يدخلون الجنة من باب الريان. عند المساء تقدم العديد من الأطباق في وليمة كبيرة وهكذا الحال في كل مساء حتى في بيوت الفقراء كانت تعد الأطباق الخاصة التي لا يستطيعون إعدادها في الأيام العادية. لن أنسى تلك الأيام فالقاهي تعج بروادها والقناديل تتأرجح من الأعمدة مضيئة الشوارع والأرض والصحراء القاحلة لمسافات بعيدة والناس ياكلون ويشربون ويتزاوون ويخرجون من مقهى إلى مقهى وأصوات متباينة تصلنا من مسافات بعيدة خلال الليل وتستمر الفرحة وصخب الحياة كل ليلة طيلة الشهر ثم تعم السكينة قبيل ساعتين تقريباً من الفجر حيث كان يمر المنادي وينادي بمعاونة طلبة يوقظ بها الناس للسحور ثم ينطلق الأذان مرة أخرى معلناً يوم صيام جديد. ثم تتذكر فجأة المهمة الأساسية التي جاءت من أجلها فتكتب: «إن التقى والإيمان الشديدين بتعاليم الإسلام جعلاني أتساءل عما إذا كان بالإمكان أن ننجح في تغيير عقيدة اخواننا المسلمين العرب».



• احد الرحالة الأوروبيين كما ظهر في الرسمة

ليلة الرؤية في القاهرة

كان «دي شابرول» أحد أبرز علماء حلمة بونابرت على مصر عام ١٧٩٨م وقد أعد دراسة قيمة بعنوان: «عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين» نشرت ضمن موسوعة «وصف مصر» الشهيرة وتحدث عن أعياد المصريين التي تعود إلى أصول دينية وبعد أن أشار إلى أن شهر رمضان في مجموعته هو «شهر لعبادة واللهو أيضاً» تحدث عن موكب ليلة الرؤية حيث يركب القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحاسب وأرباب الدولة يحيط بهم الدراويش وعامة الناس حاملين القناديل والمشاعل والمباخر وعقب ثبوت الرؤية يتوجهون جميعاً إلى القلعة لتهنئة الوالي وتضاء أمام الحوائث القناديل والشموع وتنتشر المباخر بأشكالها الجميلة تتصوع منها روائح زكية. و«إلى أن تأتي الساعة التي طال انتظارها حيث تتصاعد أصوات المؤذنين من فوق منارات المساجد فمنهم من يلبي النداء ومنهم من يهرع إلى الطعام والشراب ويحرص الأثرياء على تقديم مآدب الإفطار الباذخة حيث يقدم الطعام بلا تمييز. بينما تظل المساجد والشوارع مضاءة بالقناديل حتى مشرق الشمس ويذهب كثير من الناس إلى المقاهي للاستماع بحماس إلى الرواة والمنشدين وهم يقصون حكاياتهم العجيبة».

عابري الطريق غير المعروفين إلا أنهم قريبون بالروح والعقيدة. وهكذا ينتهي اليوم وفي صباح الغد وقيل شروق الشمس يرتفع من جديد صوت المؤذن وهكذا تمضي الأيام بالصبر والتقوى والصلاة والدعاء وانجاز أعمال الخير والإحسان ففي هذا الشهر تحديداً كما ورد في القرآن الكريم يكون تطهير النفس أذكى.

«شريعة الأميركانية» في البحرين أما «كورنيلا دالنجرج» فهي واحدة ممن خدمن بالارسالية الانجليزية الأميركية كأطباء وممرضات ومدربات في البحرين واشتهرت باسم «شريعة الأميركانية» وقامت برحلات إلى الكويت وإمارات الخليج وعمان وجزيرة العرب ومنذ أول رحلة لها إلى البحرين عام ١٩٢٢ كانت حريصة على تدوين انطباعاتها في مفكرتها اليومية ومثلما سجلت مشاعرها وهي تحتفل بأعياد الميلاد» بين أصدقائها العرب في البحرين كتبت أيضاً عن مظاهر شهر الصيام: «صوت انفجار مدافع ثلاث طلقات أبقتني من نومي في منتصف الليل كان ذلك دليلاً على بدء شهر رمضان شهر الصيام لدى المسلمين هذه المدافع تطلق في الساعة الثالثة والنصف من كل صباح ايذاناً ببدء يوم صيام جديد والذي يمتد من الفجر حتى غروب الشمس حيث يمتنع

المكرمة والمدينة المنورة مازال يحدث ذلك حالياً، وفي القرى ومخيمات البدو كان يجري على مدى قرون تعيين هذه اللحظة بمعرفة الخيط الأبيض من الخيط الأسود. وقيل الفجر يأكل المؤمنون ثلاث تمرات وبعضاً من الماء ثم يتناولون وجبة السحور وقد يهجع البعض للنوم نهاراً ويوم العمل يقصر رسمياً أثناء شهر الصوم وفي المدارس يبدأ متأخراً وينتهي مبكراً ومعظم النسوة يرقدن في القيلولة ثم يشرعن في إعداد طعام الإفطار وخلال هذه الفترة تملأ الرائحة الشهية الشوارع والأزقة الخالية تماماً من الناس ويغدو ذلك امتحاناً حقيقياً صعباً في الصبر على عابري الطريق. ويقرب المساء ويصيح صوت المؤذن الرخيم وسرعان ما ينضم إليه صوت مؤذن ثانٍ ثم الثالث وهكذا حتى تتجاوب هذه الألحان وتملأ الجو ويحل المساء فتغرق البنائيات في ظلام دامس ثم يبدأ الناس والسيارات بالظهور في الشوارع والجميع يتسارعون إلى المسجد لتأدية صلاة المغرب والابتهاج إلى الله العلي القدير والحمد والشكر له وتوزيع الصدقات ثم تناول التمرات وبعد ذلك يتناولون الإفطار بين الأهل وقضاء الأمسيات في سرادق عند أقرب مسجد وذوق ألوان الطعام والحلوى المرسله من بيوت الجيران كما تقدم المأكولات إلى

يقمن بعملية الطهي بيقين دائماً حصه من الأرز واللحم لأنفسهن وللفتيات الصغيرات».

انطباعات زوجة دبلوماسي

«المملكة العربية السعودية كما عرفتها» كتاب رائع ضم خلاصة أفكار وانطباعات «إيلفيرا أراسلي» عن تجربتها التي امتدت لثمانية سنوات التي أقامتها في المملكة برفقة زوجها سفير جمهورية أذربيجان منذ عام ١٩٩٤ ورصدت في كتابها تفاصيل الحياة اليومية في المجتمع السعودي والتطور الهائل في نمط الحياة خليط متناسق بين الطابع التقليدي والطابع الحديث. وبعد أن تحدثت عن شهر رمضان وخصوصيته بنزول الآيات الأولى من القرآن الكريم. أكدت على أن الصوم ليس مجرد الامتناع عن الطعام والشراب وإنما «هو أيضاً ادامة الفكر في ذكر الخالق البارئ ورسوله الكريم. ومزاولة أعمال الخير والإحسان وهو تجربة للارادة القوية وصلابة الروح». وحرصت إيلفيرا على الإشارة إلى مراعاة «غير المسلمين» في المملكة للالتزامات الصوم وسواء من تعاليم الإسلام وبلغة سهلة رقيقة حافلة بالمعلومات تضيف إيلفيرا: وفي الماضي في شهر الصوم كانت تطلق المدفعية قبيل وقت الإمساك في المدن الكبرى إشارة ليعرف الناس قرب بدء الصوم «في مكة

وعقب التسليم انتقلوا إلى جانب الخيمة حيث دارت القهوة والشاي على الجميع عدة مرات». كانت «أم سعود» في خيمتها متكئة على بعض الطنافس مصغية إلى أحاديث الرجال «على الرغم من صعوبة فهم لهجة آل مرة». إلى أن نهضت وذهبت لزيارة النساء في خيامهن حيث وجدت والدتها ناصر وأخواته في استقبالها رحبن بها ترحيباً حاراً وكن مرتديات أفضل ما لديهن من ثياب يغلفن شيئاً من السحر والجاذبية. «وعند انتهاء صلاة العشاء دعينا جميعاً لتناول الطعام وقد وضعت صينية كبيرة مملوءة بالأرز ولحم خروف فوق حصيرة أمام الخيمة. جلسنا جميعاً حول الصينية وبعد الحاح شديد انضم علي وناصر إلينا وفي ضوء القمر استمتعنا بتناول أشهى طعام عشاء فقد كان لحم الضأن شهياً والأرز لذيذاً ولا يتأثر الطعام كان كل منا يشرب حتى يرتوي من وعاء اللبن وبعد الانتهاء من الطعام عدنا إلى مجلسنا بجوار الموقد بينما أحاط الرجال الآخرون بالصينية في صمت ولم يبق بجوار النار سوى أربعة صبية من رعاة الابل وعندما وجهت إليهم الدعوة لتناول الطعام أجابوا في أدب: أنهم ليسوا جائعين ولم يبرحوا مكانهم إلا عندما انتهى الكبار من طعامهم فأخذوا دورهم. وآداب المائدة هذه تلتزم بها قبائل البدو ولا تحيد عنها. والنساء اللواتي

شكلت الجزيرة العربية ومصر مركز جذب للرحالة الأوروبيين خلال القرنين الماضيين باعتبارهما مناطق أقدم الحضارات ورغم تنوع أهدافهم إلا أنهم ومن خلال رؤيتهم لأحوال مجتمعاتنا الشرقية وما تمثله من عالم غريب حافل بكل ما هو غريب ومثير -من وجهة نظرهم- قد عنوا برصد كل مظاهر التقاليد والمعتقدات الشعبية المتوارثة وكان من بينها مظاهر الاحتفال بشهر رمضان.

كان الرحالة والدبلوماسي «هارولد ديكسون» معتمداً بريطانياً في الكويت منذ عام ١٩٣٦ وللصحراء علاقة وثيقة به فهو وإن حرم من دم بدوي في عروقه فإنه لم يحرم من «حليب عربي» حيث أرضعته إحدى نساء «السبعة» من قبيلة «عنزة» ما جعله أماً لأبنائها. واشتهرت قريته فيوليت بلقب «أم سعود».

فقد كان ديكسون صديقاً مقرباً من الملك المؤسس «عبد العزيز» وهو الذي طلب من ديكسون بأن يطلق اسم «سعود» على أول أنجاله عندما بشر بولادته خلال مؤتمر «العقير» عام ١٩٢٠م.

قامت «فيوليت ديكسون» بعدة رحلات إلى المملكة العربية السعودية ومنها رحلتها في فبراير ١٩٦١ عندما انطلقت من الكويت إلى «الصدواي» شمالي المملكة قاصدة زيارة «آل مرة» الذين كانوا معسكرين هناك وكان في صحبتها السائقان علي وناصر بن رشيد وابن عمه محمد وعند وصولهم إلى مضارب عائلة ناصر «اندفع أخوته وأمه وأعمامه إلى الخارج لتحيته» ورغم أنهم كانوا في شهر رمضان إلا أنهم رجوها أن تسمح لهم بإعداد القهوة والشاي لها إلا أنها رفضت وهي الخبيرة بطبائع الحياة العربية وعندما دلفت إلى خيمتها البيضاء الصغيرة أصبح بمقدورها «أن تتناول بعض الطعام في الخفاء».

وتشير فيوليت إلى أن رجال العشيرة كانوا يترقبون مغرب الشمس وعندما اختفى شعاعها ببطء خلف الأفق «تعالى النداء -الله أكبر- أربع مرات وعاد الرجال إلى الخيمة حيث وضع الطعام المعد للإفطار في وعاءين كبير وآخر صغير مملوءين باللبن الممزوج بقطع من زبد الأغنام وطبق من البلح الأحسايني وصينية بتكس فوقها خبز مستدير مسطح وصينية أخرى تحوي برتقالاً وتفاحاً وموزاً وقد جلس كل الرجال للإفطار وفي وقت قصير جداً اختفى الطعام تماماً وقد تخلل عجلتهم في تناول الإفطار بعد هذا الصيام الطويل: الكثير من الشكر لله».

ثم نهض الجميع إلى خارج الخيمة «وبعض أن ضغطوراً راحت أيديهم على الرميال «تيمموا» شكلوا صفاً واحداً ثم بدأوا صلاة طويلة يؤمهم رجل يقف في المقدمة